الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

تجلّيات البشارة الإلهية للصابرين في الدنيا والآخرة

تجلّيات البشارة رحلة في عمق المعنى الإنساني والاجتماعي والتربوي

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في خضمّ تقلّبات الحياة وتناقضاتها، فبين موجات الألم والأمل، واليأس والتفاؤل، والظلم والعدل، والرغبة والنفور، والصبر والجزع، وغيرها الكثير من ثنائيات تتعاقب على النفس البشرية، تبرز فضيلة الصبر كمنارة هداية تضيء طريق السالكين نحو النور الإلهي، وتبرز مقابلها البشارة الإلهية لهؤلاء الصابرين لا كوعد مؤجل للآخرة، إنّما كحقيقة متجلية في كلّ لحظة من لحظات الحياة، لتنسج خيوطها في نسيج الوجود الإنساني والاجتماعي، وتشكلّ منظومة تربوية متكاملة تهذّب النفوس وترقى بالمجتمعات.

فالصبر في جوهره ليس مجرد تحمّل سلبيّ للمصائب، إنّما هو موقف وجوديّ إيجابيّ يعكس عمق الإيمان وقوة الإرادة الإنسانية، فهو قدرة على الثبات أمام العواصف مع الاحتفاظ بالأمل، واستمرار في العطاء رغم الجراح، وإيمان بالحكمة الإلهيّة رغم اختفائها عن الأنظار.

وفي هذا السياق، تتجلّى البشارة الإلهية للصابرين في ظلمات المحن والابتلاءات، فاللّه عز وجل يقول: "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ "(157) ، فهذه البشارة تحمل في طياتها وعداً بالهداية والرحمة، وهي وعود تتحقق في الدنيا قبل الآخرة، فتظهر تجليّات هذه البشارة الإلهية في الحياة الدنيا، وأولّها السكينة النفسية والطمأنينة الروحية التي تنزل على قلوبهم، فهي ليست مجرد هدوء عابر، إنّما حالة روحية عميقة تمنح الإنسان القدرة على رؤية الأمور بوضوح أكبر، والتعامل مع التّحديّات بحكمة أعمق، فالصابر يجد في قلبه راحة لا يجدها الجزع، ويستشعر معية اللّه في كلّ لحظة، ويدرك أنّ وراء كل ابتلاء حكمة قد تخفى عليه في البداية لكنها ستظهر مع الوقت.

وثانيها النمو الشخصي والنضج الإنساني فالصبر يعلّم الإنسان النضـج والحكمة ويجعلهم يخرجون مـن كلّ تجربة أقوى وأكثر فهماً لطبيعة الحياة وأسرارها، فيكتسبون عمقاً فـي التفكير، وسعة فـي الأفق، وقدرة علـى التعاطف مع آلام الآخرين، وهـذا النمو الشخصي السليم هـو ما يجعل الصابرين يكتشفون قـدراتهم الكامنة

ARAB-PSF.COM

في أنفسهم، ويطوّرون مهاراتهم للتعامل مع الحياة، ممّا يجعلهم أكثر قدرة على مواجهة التحديات المستقبلية بثقة وإيمان.

وثالثها البركة في الرزق والعلاقات، فالصبر مفاتيح للخير، مغاليق للشّر، يجلب فرصاً لم تكن متاحة من قبل، فالصّابر يجد الدعم من أشخاص لم يتوقعهم، ويحصل على حلول لمشاكله من مصادر لم يكن يحسب حسابها، والصبر يعمّق العلاقات الإنسانيّة، فالناس تنجذب إلى الشّخص الصّابر لما يبثّه من طمأنينة وحكمة، وهذا التأثير الإيجابي على العلاقات يخلق شبكة دعم اجتماعي قوية تساعد الصابر على تجاوز المحن بسهولة أكبر.

كما أنّ الصبر يعمل على إملاك النّاس قيماً تربويّة وأخلاقيّة راسخة، فهو يعلّمهم التواضع فلا تكبّر في الرخاء، والثبات فلا انهيار في المحن، والأمل فلا يأس من رحمة اللّٰه، وهذه القيم تنتقل بشكل طبيعي إلى الأجيال القادمة، فالآباء الصّابرون يربّون أطفالاً أكثر قدرة على مواجهة تحديات الحياة، من خلال توريث أبنائهم للمعرفة النظرية بأهمية الصبر من جهة، والتطبيق العملي لهذه الفضيلة في الحياة اليومية من جهة أخرى.

هذا إلى جانب ما يحقّقه الصبر من تأثير إيجابيّ للصابر على من حوله في العلاقات الإنسانية التي تربطه بهم، سواء في الأسرة أو العمل أو المجتمع، فهو يصبر على أخطاء الآخرين، ويصبر في تعليمهم وإرشادهم، ويصبر على اختلاف طباعهم وأفكارهم، وهذا كلّه يتطلّب نضجاً روحياً عالياً، فالصابر في علاقاته الإنسانية يصبح محبوباً ومحترماً، يلجأ إليه الناس في مشاكلهم، ويثقون في حكمته ونصائحه.

ومن زاوية أخرى فإنّ أغلب المجتمعات التي تواجه تحدّيات جماعيّة، يبرز دور الصبر فيها على أكثر من بعد، فالصّابرون في هذه المجتمعات قادة يساعدون في الحفاظ على التماسك الاجتماعي، وأيقونات هدوء واستقرار في وسط العواصف، يلجأ إليهم الآخرون طلباً للمشورة والدعم، فالصبر الجماعي يخلق ثقافة مجتمعية قادرة على مواجهة الأزمات بشكل أكثر فعالية.

والصابرون عادة ما يكونون أكثر حساسية لمعاناة الآخرين، وأكثر استعداداً للمساهمة في حلّ المشكلات الاجتماعية، فتجربتهم الشخصية مع الألم تجعلهم أكثر تفهّماً لألم الآخرين، وأكثر حرصاً على تقديم العون

ARAB-PSF.COM

والمساعدة، وهم أهمّ العوامل لإحداث التّغيير في مجتمعاتهم، فهم يسعون لتخفيف معاناة الآخرين ومساعدتهم على تجاوز محنهم، وهم من يتعلّم كيفيّة الموازنة بين الأمل والواقعيّة، بين الطموح والقناعة، بين الجدّ والتسليم للقدر، فالصبر قد ساهم في بناء شخصية متوازنة لديهم، وجعلهم قادرين على التعامل مع متناقضات الحياة بحكمة، وهذا التوازن النفسي والروحي ينعكس على جوانب الحياة جميعها، فيصبح الصّابرون أكثر إنتاجيّة في عملهم، وأكثر سعادة في علاقاتهم، وأكثر سلاماً مع أنفسهم ومع العالم من حولهم.

أمّا فيما يخصّ البشائر الأخروية للصابرين، فإنّها تفوق كلّ تصوّر وخيال، إذ يقول اللّٰه تعالى: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"، وهذا وعد إلهي بأجر عظيم لا حدود له، فالصبر هو عبادة وُعد أهلها بأجر بغير حساب، ممّا يدلّ على عظم منزلتها عند اللّٰه، وهذا الأجر لا يقتصر على الثّواب فحسب، إنّما يشمل درجات عالية في الجنة، وقرباً من اللّٰه، ولقاءً مع الأنبياء والصالحين، فالصابرون سيكونون بمعية خير البشر، يتنعّمون بالقرب الإلهيّ الذي طالما اشتاقوا إليه في دنياهم.

والصابرون سيكونون من أهل الشفاعة والكرامة يوم القيامة، فصبرهم في الدنيا سيكون سبباً في رفعة درجاتهم، وفي شفاعتهم لمن أحبوهم من أهل وأصدقاء، وهذه الكرامة الإلهية تعكس تقدير اللّٰه لمن صبروا في سبيله، وتحمّلوا المشاق إيماناً واحتساباً، فهذه الشفاعة ستكون جزاء وفاقاً لمن ضحّوا براحتهم الدنيوية في سبيل اللّٰه.

ومن خلال الوقوف على هذه البشائر في الدنيا والآخرة، فإنّ هناك دلالات عميقة إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ الصبر ليس مجرّد مفهوم نظري، بل منهج حياة متكامل يتطلّب تطبيقاً عملياً يومياً، ويبدأ هذا التّطبيق بالصّبر على الطّاعات وأداء العبادات بانتظام وهذا يتطلّب صبراً ومثابرة، وصبراً على تربية الأولاد وتعهّدهم بالتنشئة الحسنة، وصبراً على التعامل بتكامل وشموليّة مع المنظومة المجتمعية التي تحيط بالفرد من أقارب وأصدقاء وبيئة عمل وجيران، فيكون الصبر على ما قد يلقاه الفرد من أذى منهم، وصبراً عن المعاصي، وجهاداً للنفس ضدّ الشّهوات والملذّات المحرّمة، وصبراً على أقدار اللّٰه المؤلمة، وهو أصعب أنواع الصبر لكونه يتطلّب تسليماً كاملاً للإرادة الإلهية خاصّة عندما لا نفهم الحكمة

ARAB-PSF.COM

من وراء ما يحدث لنا، إلى جانب التّمسك بالدعاء والتضرع إلى اللّٰه، وهذا النوع من الصبر يحتاج إلى إيمان عميق وثقة مطلقة في عدالة اللّٰه وحكمته، لعلّ اللّٰه يجعل بعد ذلك فرجاً عاجلاً.

وفي عصرنا الحالي، عصر السرعة والتكنولوجيا، يواجه مفهوم الصبر تحدّيات جديدة مستحدثة، فالناس اعتادوا الحصول على ما يريدون بسرعة، ممّا جعل الصبر فضيلة نادرة، إلاّ أنّ هذا يجعل أهميّة الصبر أكبر، لأنّه يعلمنا كيف نتعامل مع ضغوط الحياة العصريّة بهدوء وحكمة، فالصبر في عصر السرعة يعني القدرة على التأني في اتّخاذ القرارات المهمة، والثّبات على المبادئ رغم ضغوط المجتمع، والاستمرار في السعيّ نحو الأهداف النّبيلة رغم عدم ظهور النّتائج بسرعة.

كما أنّ الصبر في زمننا هذا يعدّ علاجاً للقلق والاكتئاب، لما له من أثر نفسيّ وإيجابيّ كبير على الصّحة النفسية، فالأشخاص الصّابرون أقلّ عرضة للقلق والاكتئاب، وأكثر قدرة على التّعافي من الصدمات النفسيّة، وهذا يؤكّد أنّ البشارة الإلهيّة للصّابرين تتجلّى حتّى على المستوى النّفسي والصّحي، فالصّبر يقوّي جهاز المناعة النفسيّ، ويساعد الإنسان على مواجهة تحدّيات الحياة بمرونة أكبر وقدرة أعلى على التكيّف.

وبعد،

في رحلتنا عبر تجليّات البشارة الإلهية للصابرين، يظهر الصبر كمنظومة متكاملة تشمل الأبعاد الإنسانية والاجتماعية والتربوية، لا كفضيلة فردية، فهو جسر يربط بين الأرض والسماء، وبين الدنيا والآخرة، وبين الألم والأمل، وتظهر البشائر التي وعد اللّٰه بها الصابرين لتتحقّق في كلّ لحظة من لحظات حياتنا، من خلال السكينة التي تملأ قلوبنا، والحكمة التي تنمو في عقولنا، والمحبة التي تزداد في علاقاتنا، والأمل الذي يضيء طريقنا نحو المستقبل، فما تعلّم الصبر والتدرّب عليه إلاّ استثمار في بعدين، في الآخرة وفي حياة أفضل وأكثر سعادة في الدنيا.

فالصبر هو اختيار نتّخذه في كلّ لحظة صعبة، وموقف نتبناه في كلّ تحدٍ نواجهه، وطريق نسلكه نحو القرب من اللّٰه والسعادة الحقيقية، وها هي قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام تكشف لنا عن أعمق أبعاد الصبر وحكمة القدر الإلهي، فحين لم يستطع موسى - وهو من أولي العزم من الرسل - أنْ يصبر على أفعال الخضر التي بدت له ظالمة وقاسية، كان درساً عظيماً في أنّ الصبر الحقيقي ليس مجرّد تحمّل المصائب، إنّما هو الإيمان العميق بحكمة اللّٰه حين تخفى علينا أسرارها، فما رآه سيدنا موسى خرقاً للسفينة وقتلاً للغلام وإقامة للجدار دون أجر، كان في علم اللّٰه رحمة ونجاة وخيراً عظيماً.

وهكذا تتجلّى عظمة الصبر في تسليمنا المطلق لحكمة اللّٰه، مؤمنين بأنّ وراء كلّ قضاء - مهما بدا مؤلماً أو غامضاً – خيراً عظيماً قد نراه في الدنيا أو ندركه في الآخرة، وأنّ صبرنا على ما لا نفهم من أقدار اللّٰه هو أعلى درجات الإيمان وأجلّ مراتب العبودية.

ولنا لقاء بمشيئة اللّٰه يوم الأربعاء القادم مع مقال جديد، وكلّ عام والأمة العربية والإسلامية بخير وسلام.

ARAB-PSF.COM